رجاء وأمل

لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا

عمر بن محمد شفيق

إنّ المتأمل في التاريخ يدرك أنّ أعداء الإسلام وخصومه ينتهزون كل فرصة يجدونها لصدّ الناس عن الإسلام، وتشويه سمعته، وتبشيع صورته، وقد اتخذوا لذلك أساليب شتى وطرقا متعددة، من كيد ومكر وصد ومقاطعة وتعذيب وسخرية واستهزاء وتخذيل ورمي بتهم وإثارة للشكوك وغير ذلك من الأساليب، ولكن الله غالب على أمره.

وقد استمر جهدهم منذ مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، لكنه يضعف حينًا ويقوى حينًا، يضعف إذا قوي المسلمون ويقوى إذا ضعفوا، أعيتهم الحجج والبراهين ففزعوا إلى القوة والعنف، وأنهكتهم الدلائل والبينات فلجأوا إلى التهديد والوعيد، وهذا دأب أهل الباطل في كل زمان ومكان.

كان الإسلام في بدء أمره ينتشر بمكة، فأقلق ذلك المشركين وأزعجهم، فظلموا المسلمين وعذّبوهم ليرتدوا عن دينهم، لكن حلاوة الإيمان وبشاشته حالت دونهم ودون التخلي عن دينهم، فاضطرّوا للهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة.

وكان من أشدّ ما يزعج قلوب الكفار القرآن الكريم، فقد كان تأثيره على النفوس عظيمًا، وسلطانه على القلوب قويًا، حتى قال قائلهم: "إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه". لقد خافوا من أن يسمع الناس هذا القرآن فيدخلوا في الإسلام،

فقالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

لقد عجزوا عن معارضته والإتيان بمثله مع أنهم أهل اللغة والبيان، وأهل الفصاحة والبلاغة، وقد تحداهم القرآن، وطالبهم أن يأتوا بسورة مثله، فعجزوا عن ذلك، وسلكوا طريق أهل الجبن والضعف، فاتهموا القرآن تارة بأنه سحر، ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]، ووصفوه تارة بأنه أساطير الأولين: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥]، إلى غير ذلك من الأقاويل.

أما كفار هذا الزمان فإنهم يخافون من القرآن وتأثيره كخوف آبائهم منه أو أشد، فصاروا يحرقون المصاحف، ويجرحون مشاعر المسلمين بكل وقاحة، ويظهرون الحقد الكامن في صدورهم تجاه الإسلام والمسلمين، ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾.

إنهم يعلمون أن مصدر عزّ المسلمين وقوتهم هو هذا الكتاب المنزل من السماء، الذي هو دستور حياتهم، فما دام هذا الكتاب بين أيديهم، ويتلى في مساجدهم وبيوتهم، ويدرس في مدارسهم ومعاهدهم، فلن تضيع هذه الأمة ولن تزول، وسيعودون إلى قوتهم وشوكتهم.

لذا فإن أعداء الإسلام يسعون جاهدين لإبعاد المسلمين عن قرآنهم، ويحاربونه بشتى الوسائل والطرق، فتارة يصفونه بأنه مصدر الإرهاب، وتارة يجعلونه سبب تخلف المسلمين وانحطاطهم، ولا يريدون بذلك إلا صد المسلمين عنه، والله المستعان.

وإن من أوجب الواجبات علينا في مثل هذا الزمان تجاه القرآن: نشر تعاليمه بين الناس مسلمهم وكافرهم، وأن لا يزيدنا هذا الهجوم الشرس على كتابنا إلا قوة في التمسك به والإقبال عليه.

ومما يزعج أهل الكفر والنفاق: هذه المساجد التي هي قلاع الإيمان وحصون الإسلام، منها تنتشر الدعوة،

وفيها يصدع بالأذان، وتقام الصلوات، وهي من أظهر شعائر الإسلام، ولذا يحاربونها، ويرمونها بالتطرف والإرهاب، ويحاربون من يرتادها.

ولما عجزوا عن صدّ المسلمين عن مساجدهم، لجأوا إلى هدمها وتخريبها بكل ما أوتوا من قوة، ومن قرأ التاريخ علم أن هذا دأبهم، فكلّما احتلّوا بلدًا أو استولوا على مدينة دمروا مساجدها وأفسدوها.

وهذا ما نراه في زماننا هذا بجلاء ووضوح، كلما حدثت فتنة أو حصل اضطراب في مدينة من المدن استهدف الأعداء المساجد وأئمتها، وحاربوا المصلين والمتعبدين.

ويتأكد علينا في مثل هذه الظروف الصعبة: عمارة المساجد حسيا ومعنويا، وإحياء دورها في المجتمع من تربية وتعليم وأعمال خيرية ونحوها، وأن لا نحصر دورها في إقامة الصلوات الخمس فحسب، بل نجعلها مقرا للتعليم والتربية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومع هذه الحرب الشعواء على المساجد، وتشويه صورتها في القنوات الفضائية والإعلام لا نرى إلا ما يغيظ الأعداء ويحزنهم من زيادة المساجد وانتشارها في كل بقاع الأرض رغم أنوف الحاقدين والمشركين، وهذا من تمام نعمة الله وعظيم فضله على هذه الأمة.

وما نراه في مجتمعنا من استهداف المساجد واحدة تلو الأخرى، يؤكد علينا السعي في نصرتها والحفاظ عليها والدفاع عنها، صيانة لحرمتها، وغيرة لدين الله عز وجل وحمية له.

لقد حاول كثير من الناس عبر التاريخ بشتى الوسائل أن يطفئوا نور الله عز وجل، لكن الله خيب قصدهم، وأشرقت شمس الإسلام على الأرض، وظهرت أشعتها في جميع أنحاء العالم، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] .

وما أحوجنا في مثل هذا الزمان إلى الأمل والرجاء، في زمان نرى فيه

الحرمات تنتهك، والأرواح تزهق، والدماء تسال، والبيوت تهدم، والديار تخرب، والجرائم تتكرر، في زمان قد استولى فيه اليأس والإحباط على قلوب الناس بسبب ضعف الأمة وتكالب الأعداء عليها، ما أحوجنا في مثل هذا الزمان إلى من يبعث في الأمة روح الأمل، ويدفع عنهم اليأس والقنوط.

لقد أصيب المسلمون في أحد، وقتل منهم سبعون صحابيا، منهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وجرح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصاب المسلمين الغم والحزن، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠]. نزلت هذه الآيات تعزية المسلمين، ولتخفف عنهم ما نزل بهم، ولتعلمهم سنة الله عز وجل في خلقه.

جاءت هذه الآيات لتعلمنا سنة التداول، ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾، فالحياة متقلبة، لا يدوم عليها حال، يوم لك وآخر عليك، لا الضراء تدوم ولا السراء، ولا الفقر يدوم ولا الغنى، ولا الغم يدوم ولا السرور.

فَيَومٌ عَلَينا وَيَومٌ لَنا
وَيَومٌ نُساءُ وَيَومٌ نُسَر

ومن سنن الله في هذه الحياة أن العاقبة للمتقين، وأن النصر للصابرين، وقد أخبر الرسول الصادق صلى الله عليه وسلم أن العاقبة للإسلام لا محالة، مهما ضعف، ومهما كثر الأعداء، قال صلى الله عليه وسلم: ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله الإسلام، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلًا يذل الله به الكفر. [أخرجه أحمد برقم ١٦٩٥٧]

إن الله جل وعلا وعد عباده المؤمنين بالنصر، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وأخبر أنه يدافع عنهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨، وبين أن الغلبة لهم، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وذكر أن مع العسر يسرا، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، "فلو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه"، ونبه سبحانه على أن الظلم لن يبقى ولن يدوم، وأنه ينصر المظلوم، ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الحج: ٦٠]، وأنه يهلك الظالمين، (﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وَلَرُبَّ نازِلَةٍ يَضيقُ لَها الفَتى
ذَرعاً وَعِندَ اللهَ مِنها المَخرَجُ
ضاقَت فَلَمّا اِستَحكَمَت حَلَقاتُها
فُرِجَت وَكُنتُ أَظُنُّها لا تُفرَجُ

***

حلاوة العلم

قال ابن القيم رحمه الله:

«ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها لتجالدوا عليها بالسيوف ولكن حفت بحجاب من المكاره وحجبوا عنها بحجاب من الجهل ليختص الله لها من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم»

(مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: ١/ ١٠٩)